لماذا تفضل الأم الولد على البنت؟

د. لطيفة الكندري

أستاذ مشارك في كلية التربية الأساسية

حائزة على جائزة الأم المثالية لعام 2008 م

وحاصلة على جائزة الدولة التشجيعية في مجال التربية لعام 2008 م

سوف أتناول هنا الأصول التربوية في قضية جنس المولود وحسن استقباله، وعظم مكانته، وفضل تربية من منظور التربية الإسلامية, ثم سأتحدث عن الواقع الذي يؤمن ويهيمن على مشاعر وتفكير وتصرفات بعض الناس من تفضيل الذكور على الإناث قولا أو عملا, وأسباب ذلك, وخطره وسبل الوقاية من هذه القضية الهامة.

كل أم تفرح بالرزق الذي يهبها الله تعالى, ولكنها في بعض الأحيان للأسف تشتاق إلى البنين دون البنات لكي ترضي تطلعات الزوج أو من حولها من أصحاب الأفق الضيق وأحيانا تفعل ذلك حتى لا يتزوج عليها الزوج بأخرى وخاصة عندما تلد كل أطفالها إناث. إن نقص الوعي, وقلة الثقة بالنفس, والابتعاد عن تطبيق مقاصد الشريعة, والطاعة العمياء لسلطة الزوج, والخضوع لرغبات ومعتقدات المجتمع الذكوري من أهم أسباب تفضيل الأم للذكور. يحدثنا الواقع أن الولد إن لم يكن صالحا جلب العار والشقاء لأهله وأن القضية الحقيقية هي قضية الصلاح لا جنس المولود.

من الغريب حقا أننا في عصر العلم والتفتح العقلي ولكننا نفكر بذهنية متأخرة تجعل فئة من الناس تقرب الزوجة التي تنجب الأبناء ولا تنظر بعين الرضا لمن لا تنجب إلا البنات. وقد تستمر معاناة الفتاة لمجرد أنها أنثى فتلاحقها نظرة سلبية أساسها أنها قاصرة وجاهلة وضعيفة وركيكة العقل إلى آخر العبارات والتصورات والتصرفات التي تقدح بإنسانية المرأة بل نسمع ونقرأ عبارات من المثقفين وغيرهم لا تتسق مع جماليات الإسلام وتجليات الوصايا النبوية التي تعلي من مكانة الأنثى. وهناك حالات تحرم المرأة من الميراث الشرعي عن طريق حيل اجتماعية واهية وهناك حالات كثيرة تحرم فيها الإناث من اختيار الجامعة أو التخصص أو الزوج أو مجال العمل وكلها انعكاسات وامتدادات لنظرة قاصرة منذ الميلاد فثمة مشكلة كبيرة تهدف إلى التضييق على الإناث من لحظة ميلادها إلى ما لا نهاية.

خلق الله تعالى الإنسان مكرما وفي أحسن تقويم ولا يحق لأحد كائنا من كان أن يقلل من قدره أو أن يهون من أمره فمن رفع الله سبحانه مكانته لا يجوز لغيره أن يحط من شأنه. قال المولى سبحانه في محكم التنزيل "للهِ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ويَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وإِنَاثًا ويَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ" (الشورى: 49-50).

الأصل في حب الأبناء والبنات هو حب غير مشروط؛ فالأسرة تحب أبناءها وبناتها دون تفرقة بينهم فهم بلا خلاف هبة من الله وزينة للحياة. نعم الأولاد والبنات هبة من الله وزينة للحياة. وهذا المفهوم الواضح الراسخ من قيم الإسلام الكبرى الذي جعل الأفضلية في العمل وليس الجنس وكما قال جل ثناؤه "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ {13} (سورة الحجرات). وهكذا ربطت الآية الكريمة بين الكرامة الإنسانية, وصدق الطوية, وجعلت مناط الأمر خشية الله سبحانه, وحسن العمل. قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمُ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ" وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ" (رواه مسلم).

إن الأبناء والبنات من النعم الجليلة, والهبات العظيمة على الإنسان، وهذه النعمة تستوجب علينا أن نعتني بها غاية الاعتناء, وأن نحرص على حمايتها والحفاظ عليها بكل السبل حتى نكون آباء وأمهات صالحين, وقدوة لأطفالنا وقوة لمجتمعنا. وبهذا المسلك الحكيم نصل لغايتنا في حياة هانئة لقوله تعالى "مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {97} (سورة النحل). ومن هنا نعلم يقينا أن الحياة الطيبة التي يبحث عنها الناس لا صلة لها بالذكورة والأنوثة إنما هي قريبة المتناول لمن يسعى لها بقلب منيب وعمل صالح.

تعتبر التفرقة بين الأبناء من الأساليب التربوية الخاطئة التي تكون لها عواقب خطيرة على نفسية الأبناء والبنات منها الحقد ،والغيرة ، والأنانية كما أن كبت البنات والتقليل من شأنهن ظلم يعيق الأسرة والمجتمع والإنسانية من الإفادة من طاقات خلاقة. والأسوأ من ذلك فإن انتقاص حق الإناث من شأنه تعطيل طاقاتهن, وتهميش دورهن في الحال والمآل. إن تفضيل بعض الأسر الذكور على الإناث يمكن ملاحظته في أكثر من سياق اجتماعي وذلك عندما تغفر الأسرة أخطاء الولد دون البنت, وتعطيه مساحة من الحرية أكبر من البنت, وتعطي الذكور الحق في الاختيار واتخاذ القرار بعكس الإناث. وأبعد من ذلك فإن الوعي الجمعي والتراث المجتمعي يهون من أخطاء البنين حتى تصبح من الصغائر ويهول من هفوات البنات حتى تبدو من الكبائر ولهذا يقول العرف "الولد شايل

عيبه" وهذا تبرير لتصرفات الذكور الخاطئة. وهذا الميزان المائل يعيق التقدم الحضاري ويطوح بـــالقيم والمقاصد الدينية.

ولكي نتجاوز الاعوجاج إزاء هذه المسألة الإنسانية لا بد من بيان أسباب الأمر. وأســـباب هذه الظاهرة عديدة منها:

1. طغيان العادات والتقاليد السلبية على الفكر؛ حيث تعتقد الأسرة بأن الولد أفضـــل من البنت فكرا وعقلا...
2. التعلق الشديد بالولد لأنه سوف يحمل اسم العائلة.
3. تصور أن الولد أكثر نفعا لا سيما في حال عجز الوالدين.
4. إعطاء الولد المسئوليات الأسرية أكثر من البنت.
5. ضيق مساحة المرأة في التحرك والتنقل مقارنة بالأولاد.
6. هناك بعض الآراء الدينية تميل نحو تقليل شأن المرأة.
7. الاعتقاد بأن متطلبات البنت الحياتية أكثر من الولد.
8. نظرة المجتمع أن الولد أذكى من البنت.
9. الخوف من جلب العار, فالمجتمع قد يغفر كبائر الذنوب عندما يقترفها الولد وقد لا يغفر صغائر الزلات عندما تقع من الأنثى. ومن المآسي أن التـــاريخ يخبرنـــا بـــأن السيوف تقطع نحور الإناث من أجل شبهة واهية وأكاذيب ملفقة.
10. وسائل الإعلام بل حتى المناهج الدراسية المعلنة والخفية تكـــرس الصـــورة النمطية للبنت من أنها تابعة وليس لها مقومات الإبداع والقيادة. وسبق أن نشـــرت العديد من الدراسات عن هذا الجانب ومعظمها منشورة.
11. في مجتمعاتنا العربية لا زال البعض ينشر أخبار زواج أولادهم بكل فخـــر ويخجلون من كتابة أسماء بناتهم ويكتفون بالتلميح دون التصريح وكأن ذكر أسمـــاء البنات بشكل صريح فعل قبيح.
12. التنقيب عن أخطاء المرأة وتطبيق أقصى وأقسى العقوبات في حال الوقـــوع في الزلل "قتل الشرف" أما الذكر في نفس الأمر في القانون الكويتي وغيره فجنايتـــه جنحه وجريمته هفوة.
13. رغم أن تراثنا العربي يحتوي على روائع تدل على تكريم المرأة إلا أن الـــذي ساد في تراثنا الضخم التقليل من شأن الإناث حيث مرت القرون تلو القـــرون دون أن تلج الأزهر كطالبة أو كمعلمة إلى عصر قريب وبعد جهد جهيد وبشق الأنفس

وبعد معارك فكرية, وممانعة دينية وهكذا نفهم متأخرا ونضيق واسعا إذا ابتعدنا عن مقاصد الدين بل قد نقصر في حق ديننا من حيث لا ندري.

ونلمح جذور معضلة تفضيل البنات من القرآن الكريم الذي حدثنا عن الوجوه المكفهرة من سماع خبر المولودة فحال الأب كظيم وواقعه أليم وقد عاب القرآن الكريم هذا المسلك المشين. ثم نتصفح التراث العربي فنجد قصة أبي حمزة ووردت عن أبي الذلقاء أيضا حيث يروى أنه كان هناك رجل مئناث، فولدت له امرأته جارية فصبر، ثم ولدت له جارية فصبر، ثم ولدت له جارية فهجرها وتحوَّلَ عنها إلى بيت قريب منها، فلما رأت ذلك أنشأت تقول:

ما لأبِي الذَّلْفَاء لا يأتينا * وَهُوَ فِي الْبَيْتِ الذي يَلِينَا

يَغْضَبُ إنْ لَمْ نَلِدِ الْبَنِينَا * وإنَّما نُعْطِي الذي أُعْطِينَا

وهذه القصة ذات دلالات عميقة تكشف طرفا من المظالم التي تقع على المرأة بلا ذنب لها.

أود هنا أن ألخص رؤية ثاقبة مؤيدة بالتوفيق لأحد الباحثين وهو الدكتور محمد البهى عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقا إذ يقول: "إنَّ من أماراتِ تخلُّف الإنسان في تصوره للحياة أنْ يرى أنَّ الذكر أفضل من الأنثى بين الأولاد ... وقيمة الإنسان في واقع أمره ليس في أنه ذكر أو أنه أنثى، بل في أنه "إنسان" في تهذيبه وفي سلوكه وحُسْن مُعاملته واستقامة تفكيره. ولعل الأنثى ــ إذا وُجِّهَتْ توجيهًا سليمًا ــ أقربُ إلى ذلك الإنسان المستقيم الناجح من الذكر؛ لأنَّها تجعل بحكم الفطرة استقامة التفكير وحسن السلوك وسيلةً لقَبولها في الأسرة والمجتمع... وتصوُّر أفضلية الذَّكَر على الأنثى لدى بعض الناس أو كثيرًا من الناس في مجتمعاتنا المعاصرة ليس غريبًا؛ لأنَّ أمارات الجاهلية في السلوك والتصوُّر لا ترتبط بالتخلُّف في الصناعة، إنَّما ترتبط قبل بكل شيء بالتخلُّف في الإيمان بالله على وجهه الصحيح. إذ الإيمان بالله هو إيمان بمستوى الإنسانية في ذاتها و "تقويم" سليم لخصائص الإنسانية في التصور والإدراك، والاعتقاد والمعاملة والسلوك. وليس بلازم ــ إذنْ ــ أن يكون التقدُّم في الإيمان والإنسانية مرتبطًا بالتقدُّم في العلم أو الصناعة" (باختصار).

والحق أن الأسباب متنوعة ولكن النتيجة واحدة وهي أن الوعي العربي ما زال يعاني من ضمور مكانة الإناث وهيمنة الذكور رغم حركات التحرر والتطور ولكن المبشرات تتوالى حيث بدأت المرأة تثبت جدارتها في ميادين كثيرة وطموحة.

إن تفضيل الإناث على الذكور والإصرار على مبدأ المفاضلة والمفاصلة حرمنا من خير كثير. إن النظرة السوية للإناث والذكور هي نظرة التكامل لا التفاضل ولا التماثل. الذي يدعو للتماثل يلغي الفروق بين الجنسين وهذه نظرة قاصرة, والذي يؤسس رؤيته على التفاضل في كل الأمور فهو غير منصف أما الذي يسع المجتمع, ويثريه, ويحميه, ويعمره فهو الفكر التكاملي؛ فالرجل والمرأة شقيقان وشريكان في صنع الحياة الطيبة.

لا شك أبدا بأن التربية الإسلامية رحمة للعالمين وهي تربية شاملة وقويمة ولكن ابتعاد طائفة من الناس عن الجادة حرمهم وحرمنا من خير كثير وفضل كبير. ينص الدستور الكويتي بشكل واضح وصريح لا لبس فيه بأن "العدل والحرية والمساواة دعامات المجتمع. والتعاون والتراحم صلة وثقى بين المواطنين" (المادة السابعة من الدستور الكويتي). ولهذا نجد معلم الكويت الأول الشيخ يوسف بن عيسى القناعي لامس قضية المرأة وكشف عن المعوقات التي تطوقها وتوقف نموها, ونظر للمجتمع نظرة نقدية ثاقبة فرأى أن الثقافة الذكورية الجامدة تخيم على سمائه وتكسو أرضه, وأن النصف الآخر للمجتمع كاد أن يتعطل أو أن يشل بسبب ركام الجهل وحطام الأمية. لم يكتف القناعي بالإنكار والمراجعة الناقدة للواقع بل فتح آفاق تعليم المرأة وآمن بقدرتها في تعمير الأرض وتحقيق الرخاء بجانب الرجل.

يقول معجب سعيد الزهراني عن صورة المرأة في خطاب ابن رشد "يمكن اختزال راي ابن رشد بالفقرة التالية: تشترك المرأة والرجل في النوع والطبع والكفاءات الذهنية والعملية وإن اختلفت عنه في بعض الخصائص والوظائف. وحالة التردي التي كانت تعيشها النساء في المجتمع العربي المسلم آنذاك تعود إلى تصورات خاطئة موروثة من ثقافة قبلية ــ أبويّة تحرم المرأة من اكتساب الفضائل والمهارات عبر تجربتي التعالم الجاد والعمل الخلاق".

يمر المجتمع بعدة أطوار في تنمية الأفكار وهنا دور أصحاب البصائر.

تؤكد التربية الحديثة على أهمية وضع توقعات عالية للطفل وغرس معتقدات راقية عن طاقاته ولا بد من استخدام الكلمات الإيجابية النافعة النابعة من العدل والمساواة والكرامة الإنسانية وهذه احتياجات لا مفر من توافرها لضمان تنشئة حسنه لأطفالنا عموما وبناتنا خصوصا.

هناك حاجة ماسة إلى قراءة تراثنا التربوي وانتقاء النفيس منه وتوظيفه في عالم اليوم, كما أن الحاجة ماسة لدراسات علم الإنسان وتقديم دراسات دقيقة وعميقة عن تنشئة البنات في عالمنا العربي بمحاسنها وسلبياتها. هناك حديث طويل عريض عن حقوق البنات ولكنها تستخدم كمعوقات في أحيان كثيرة. لقد أسهبنا في الحديث عن لباس المرأة, وأهملنا حقوقها الإنسانية والمدنية, ودورها في تعمير الحياة, والمصاعب, والمصائب التي تواجهها باسم الدين تارة, وباسم العادات تارة أخرى. التربية الإسلامية أولت عناية فائقة بتربية البنات في كل مراحل العمر فلنحافظ على هذا الأمر.

إنني ألمس وبكل صدق أن الأفكار البالية بدأت تنكمش وبدأت الحقيقة الباهرة تسطع وتنكشف لكثير من الناس الذين يفرحون بالمولود والمولودة كهبة محببة من الله سبحانه ذكرا كان أم أنثى وهذا هو الشعور الفطري السليم فالله لا يختار لعبده إلا الخير ولا يختار لأمته إلا الصواب. من

الأهمية بمكان أن نحمد الله على العطاء وينبت المولود فينا وبيننا نباتا حسنا. الله هو الرزاق فكل عطاء منه جميل وآن الأوان لنجتاز هذا الجدل العقيم لنهتم بالقلب السليم والعمل القويم.

إنني كأم فخورة كل الفخر بالبنين والبنات على حد سواء.

الأولاد والبنات هبة من الله وزينة للحياة.